

الخصائص المعنوية في لامية الشنفرى

The moral characteristics of the "lamina" by shanfari

مسعودان محمد

1 جامعة احمد الونشريسي - تيسمسيلت -

Messaoudene-ahmed@yahoo.fr

تاريخ النشر: 5-7-2020

تاريخ القبول: 3-2-2020

تاريخ الاستلام: 16-11-2019

الملخص:

لقد حظي الشعر العربي قبل الإسلام بدراسات مهمة اهتم بها الباحثون من العرب والمستشرقين الذين يعملون في حقول الدراسات العربية والإسلامية، من: لغوية وتاريخية وفكرية، أو حضارية على وجه العموم. ولعل السر الذي دفع هؤلاء الباحثين إلى الدراسة الدقيقة، أن المجتمع الجاهلي اهتم بالأدب بشكل كبير، خاصة الشعر الذي بلغ ذروته آنذاك، فكان له تأثير في نفوسهم، إذ يتعلق بأنسابهم وأحسابهم وتاريخهم، من أجل ذلك سُمّت العرب القصائد كما سُمّت الجبال والأودية، فكأنما هذه القصائد معالم كبرى في الشعر العربي، ومن أمثلة ذلك، المعلقة والمذهبات والسموط، والمنصفات، كما اهتم العرب بتسمية القصائد حسب مطالعها كقصيدة « قفا نبك » و « بانت سعاد »، كذلك اهتم العرب بتسمية القصائد حسب قافيتها كاللأميات والميميات والرائيات وغيرها، واللأميات من أكثرها شيوعا وانتشارا ودراسة، وتكمن أهمية اللامية في المكانة التي بلغت بين القصائد الجاهلية على الخصوص، والقصائد العربية

على العموم .واخترنا لامية الشنفرى نموذجاً لدراسة الخصائص المعنوية .

الكلمات الدالة: الشعر الجاهلي - لامية العرب - الصعاليك - الشنفرى

Abstract-

Pre-Islamic Arabic poetry involved important studies of interest to Arab and Orientalist scholars, those working in the fields of Arab and Islamic studies, linguistic, historical, intellectual and civilizational aspects in general.

Perhaps the secret that prompted these researchers to study carefully was that pre-Islamic society was very concerned with literature, especially poetry that peaked at the time, and it had an effect on them because it related to their lineage, their tales and their history, for this reason, the Arabs named poems as they called mountains and valleys, as if they were Poems are major milestones in Arab poetry, and examples include pendants, doctrines, scales and equity, because the Arabs were interested in naming the poems based on their readings like the poem "Qaf Nabak" and "Bant Souad", as well as the Arabs were interested in naming the poems according to their rhyme, such as lamias, mimias, narrators, etc. Common and widespread and of study, and the importance of literacy lies in the place it has reached between pre-Islamic poems in particular, and Arab poems in general. And we have chosen Shanfari's illiteracy as a model for studying moral characteristics

Key words: pre-islamic poetry - arab lamiat - arab tramps - alshanfari.

أولا : المعطيات

1 - الشاعر هو ثابت بن أوس الأزدي المعروف بالشنفرى، هو شاعر جاهلي من أفتك الصعاليك وأعداهم نشأ في بني سلامان من بني فهم فلما كبر عُرف أنه أسر صغيراً، وقيل هم أخواله أخذوه بعد مقتل والده فنشأ فيهم، فلما علم غادرهم وأقسم أن ينتقم منهم. قيل أنه سمي بالشنفرى لغلظة شفثيه مما يشير إلى سواد لونه ، وقيل بل حدة في طبعه ، عاش في البراري والجبال وحيدا حتى ظفر به أعداؤه فقتلوه قبل 70 سنة من الهجرة النبوية- 525 م⁽¹⁾

2 - الشنفرى والصعاليك

حياة الصعاليك قائمة على القوة، والشّنفري حظي من هذه القوة بما لم يحظ به صعلوك على الإطلاق ، وشخصيته بكل مقوماتها ظلت تثير العجب في عصره وبعد عصره أيا كان الحكم على سلوكه ، فأخبار الصعاليك قد فرضت نفسها على الرواة والمؤلفين ،الذين وجدوا في هذه الأخبار أثمن ما يروونه ، وأخبار الشّنفري كلها تثير التعجب والاهتمام، حتى أخذت طابعا يشبه الأساطير، ومن أبرز ما يميز الشّنفري قوة الإرادة ، وصلابة العزيمة ، والصعاليك جميعا يحملون هذه الإرادة ، لكن ليست في درجة الشّنفري التي تكاد تفوق التصور، ومصدر هذه القوة أنه يتحكم في نفسه من جميع زواياها ، ضف إلى ذلك القوة الجسدية ، وتمثلت في سرعة العدو، وتجمع الروايات على أنه لم تلحقه خيل قط ، حتى ضرب به المثل فقيل **أعدى من الشّنفري** ، وقد امتاز الصعاليك بأنّ عددا كبيرا منهم قد وهبوا مقدرة العدو .وفوق ذلك الشاعرية فهو من الصفوة الممتازة في شعراء العرب، يقول الدكتور عبد الحليم حفني: وأنه مهما كان الاختلاف في ترتيب الشعراء ووضعهم في طبقات ودرجات، فهو دائما في المقدمة بالنسبة لشعراء العربية قاطبة، سواء كان في الطبقة الأولى أو في طبقة تليها ⁽²⁾.

هؤلاء الصعاليك متمردون على قبائلهم ،ينتقمون من أقاربهم وذويهم ،اتخذوا من الغارة مرتزقا كما تصنع عامة القبائل، يقول الدكتور إسماعيل شلي: وفي هذا المجتمع الجديد يتجه شعر الصّعاليك إلى وصف حالهم ، ذاكرين مشاعرهم إزاء هذه الحياة الجديدة، حياة التشرد وعدم الاستقرار، إنهم لا يعرفون ما يأتي به الغد، فإن أمسوا فلا أمل في الصباح، وإن أصبحوا لم يعلموا ما يأتي به المساء ، ولأما يصادفهم أو يصادفونه في هذه الصحراء الجرداء التي أنسوا إلى وحشها ، أكثر من أنسهم إلى بني جلدتهم من البشر ⁽³⁾ .

3- لامية العرب

من أشهر اللاميات في الشعر العربي: لامية الطغرائي ، ولامية امرئ القيس ولامية النابغة، ولامية زهير، ولامية عنتره، ولامية حسان، ولامية الشّنفري والتي مطلعها :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ
فَيَأْتِي إِلَى قَوْمِ سِوَاكُمْ لَأَمِيلُ

والملاحظ أن لامية الشّنفري سميت لامية العرب دون سواها من اللاميات ، فالسؤال الذي يتبادر

للذهن لماذا خصصت بهذا الاسم من دون غيرها من اللاميات ؟ يقول الدكتور عبد الله محمد بلال : سميت قصيدة الشنفرى بلامية العرب تمييزا لها عن سائر القصائد اللامية وقد شغل أحد العلماء هذه التسمية قوله : فكأنها من تأليف العرب مجتمعين، أو كأن الشنفرى أسقط عن العرب كلفة الحديث عن أنفسهم وبيان مفاخرهم المتعلقة بالقيم المركوزة في أنفسهم ، ولعل أول من أطلق عليها هذه التسمية، إن صحت الرواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال : علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق، وقد ذكرها ابن قتيبة، إذ قال : لامية الشنفرى المشهورة بلامية العرب⁽⁴⁾. إن لامية العرب درة لامية في الأدب العربي كله، فقد صورت لون الحياة العربية وبالضبط حياة الصعلكة، وعلى التعبير عن حياة طائفة من المجتمع آنذاك ، ووصف بيئة معينة في الجزيرة العربية، هي البيئة التي اتخذ منها الصعاليك ميدانا لنشاطهم ، ومنطلقا لغاراتهم ، بما تشتمل عليه من خصائص بل واضح التمييز والتفرد في طبيعتها و في حيوانها، وفي مناخها، وظهر هذا كله جليا في قالب شعري واضح الجودة .

4 - الخصائص المعنوية في لامية الشنفرى

أ- الصدق :

يقول الدكتور عمر فروخ : «الصدق في الشعر أن يعبر الشاعر عما يشعر به حقيقة مما في نفسه ، وألا يتكلف في إيراد بقطع النظر عما إذا كانت الحوادث بذكرها قد وقعت أم لم تقع أو كان مبالغا فيها .»⁽⁵⁾ ويتضمن شعر الشنفرى أحاديث لأحداث واقعية، من معاناة وأحاسيس لما يدور حوله لكون شعره يمتاز بأنه دائما في الصورة وليس خارجها ، فهو يصوغ نفسه دائما في موضع الجزء الأساس من الحدث وليس موضع المشاهد المتفرج ، فإطالة الشاعر على الجوع وصره عليه مهما بلغ به الجهد ، جاءت من أجل إذهاله عنه لأنه يفضل أن يستف التراب على أن يكون لإنسان نعمة عليه ، وهذه تجربة واقعة للشاعر يوميا ، عبر عنها بصدق ولولا خلقه هذا لعاش في رغد ونعيم ، لكن نفسه وعزته الأيتين لا ترضيان الذل والمهانة⁽⁶⁾. ومما لا شك فيه أن التجربة تجعل من الشاعر يبلغ قمة التجربة الحقيقية (الواقعية)، فيصبح شعره لا يحتاج إلى توضيح ، وهذا راجع لصدق أقواله المبنية على أساس الواقعية . فانشغاله بحياته الخاصة ،

وانغماسه في بؤرة الإملاق وابتعاده عن حياة الترف واللهو التي يتمتع بها غيره لم تكن من إرادة الشنفرى نفسه ، بل فرضها الواقع عليه مما دفعه إلى هجر قومه وتفضيله لعالم الحيوان الذي يرى فيه عالم المثل ، ورسم لنا صورة حقيقية مشوهة فاضحة عن قبيلته التي وصفها بإذاعة السر والتخاذل والجشع وهذا ما لا يجده في معاشرته للوحوش ، فالصحراء على صعوباتها وتحدياتها صيفا وشتاء تثير في أذهان المتلقين سؤالا: لماذا يكلف الشاعر نفسه الحياة في صحراء تفتقد أبسط وسائل العيش مع أنه كان بإمكانه البقاء في قبيلته والاستمرار في الحياة مع أنبائها ؟ الجواب : إن الشنفرى - عبر فيها بصدق - رفض العيش في البيئة التي يعامل فيها بالازدراء والتهميش ، ففي هذه الظروف السيئة قد فقد أمله بالحياة الكريمة مع أبناء بيئته وتطلع إلى حياة ألد وأبهى - حسب اعتقاده - في التنقل والترحال على الأرض التي من حقه أن يعيش فيها تلك هي الحقيقة التي أشار إليها الدكتور نوري حمودي القيسي حين قال : « أن صرخة الشنفرى هذه تمثل لون التحدي لأنه يعتقد أن الأرض جميعا أرضه ، وإن انتقله من مكان إلى آخر هو إنتقال على الأرض التي من حقه أن يتحرك فيها ، فإذا أحس بأن لون من الأذى قد وقع عليه أو أن قبيلته أساءت إليه فإن من حقه أن يترك أرضه إلى أرض يكون فيها كريما وإلى مكان يكون فيه عزيزا.⁽⁷⁾ وليس هذا المكان إلا مملكة الحيوانات ومؤانسة الوحوش بدل القبيلة ، فهو الذي خالط الأماعر الجبلية حتى أنها تظنه واحدا منها وتلتف حوله ، ذلك لأن مظهر الشاعر بملابسه الرثة وشعره المكثف الأشعث ، يضاهي منظر الوعول بأقراها الطويلة حيث يقول :

تَرْوُدُ الْأَرَاوِي الصُّخْمَ حَوْلِي كَأَنَّهَا عَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْمَلَأُ الْمَذْيَلُ
وَيَرْكُذْنَ بِالْأَصَالِ حَوْلِي كَأَنِّي مِنَ الْغُصْمِ أَذْفَى يَنْتَحِي الْكِخَ أَغْقِلُ

فالشنفرى في هذين البيتين ، رسم صورة رائعة لحاله ، فهو فتوغرا في بارع في اختياره لهذا المشهد الذي لا يكاد الناظر يراه أن يفرق بينه وبين الوعول لدقة تصويره والتماثل الحاصل بينه وبينها فالصدق يظهر جليا في تعبيره فهو لم يزيّف حقيقة ، فهذا هو حال مشرد مطارد ، هائم على وجهه لا يهتم بحاله ثياب رثة ممزقة ، وشعر طويل متسخ ، وأرجل حافية ، حقا إنه منظر مخيف لبشري يُرى بهذا الشكل ، فالشنفرى لم يرض بهذا العيش وإن أبدى عكس ذلك وإلا

كيف نفسر قتله لأبناء قبيلته والغارات الموجعة ونهبه للأموال والممتلكات ، فهو يتشدد فخرا بأنه يقتل الرجال ويجعل النساء مرمولات والأولاد يتامى فيرجع سالما غانما قبل أن ينقضي الليل :

فَأَيَّمْتُ نِسْوَائاً وَأَيْتَمْتُ إِلَدَةً وَعُدْتُ كَمَا أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلِيلٌ

فالشَّنْفَرى كشف عن حقيقة نفسه وبين عن موجة الأحقاد والضغائن التي غمرت قلبه بادية في كلماته جليا ، ويمكن القول أن هذه ميزة كل صعلوك، ولعل هذا البوح ينبئ عن أخلاق الشَّنْفَرى وما نلاحظه من صدق وأمانة في تعبيره عما يدور في حنايا نفسه ، دون أن يخفي أو يزور حقيقة وإلى هذا أشار الدكتور سعد إسماعيل شلي بقوله : « ذلك لأن العربي مفطور على الصراحة مع نفسه ، ومع الآخرين وله من حياته البدوية ما يؤازر صراحته هذه ، ومن شجاعته وفطرتة البسيطة غير المعقدة ما يعمق هذه الصراحة فينطق عما يختلج في نفسه دون تزوير أو خداع ، بل صراحة مستمدة من هذه الطبيعة الواضحة»⁽⁸⁾ ويؤكد هذا الصدق أيضا الدكتور غازي طليمات بقوله : « فأنت واجد في شعر الصعاليك من الصدق الفكري والفني والنفسي ما لا تجد في أغراض الشعر الأخرى . لأن أصحاب هذا الشعر خلعوا عن مناكبهم حياة الآخرين وحرصوا على تصوير حياتهم الخاصة تصويرا صادقا أميناً ، يرصد حقائقها ودقائقها وفضائلها ووزائلها، ويسجل أحداثها، ويقيّد الأحداث بأمكنثها وأزمنتها حتى غدا شعرهم تأريخا لواقعهم المنافر للواقع الذي يكتفهم . »⁽⁹⁾

إن الذي نؤكد من هذه الواقعية في لامية الشَّنْفَرى ، صدق النقل عن الحياة ، ومطابقة الصورة للأصل، وحتى يخيل للمتلقي أنه أمام مجموعة من الصور الفوتوغرافية وهل صورة الذئب والقطاه والوعول الأرقط والعرفاء والجيال إلا صور فوتوغرافية سجلتها عدسة الشَّنْفَرى لهذه النماذج من الطبيعة الحية ؟ كما أن هذه الواقعية موصوفة بالصراحة ، بحيث لا يجد الشاعر الصعلوك حرجا من أن يتحدث عن نعليه الباليطين الممزقين كما يفعل تأبط شرا والشَّنْفَرى أو عن ثيابه التي إذا أنجمت من جانب لا تكف كما يقول الشَّنْفَرى ، أو عن حملة قربة الماء كما يذكر تأبط شرا⁽¹⁰⁾.

ب - النزعة الوجدانية :

اهتم الإنسان العربي بالشعر بوصفه جزءا من بنية وعيه ، ورافدا رئيسيا من روافد تفكيره ، وباعثا لافتا للنظر من بواعث حضوره الوجداني ، يصدر عنه من التعبير عن مكنون ذاته أو انتمائه العاطفي أو الإنساني ، ويرجع إليه في إثبات وجوده وإعلان تمسكه بما ينتمي إليه . وإلى هذا ذهب الدكتور عمر فروخ إلى تأكيد هذا بقوله : « الشعر الجاهلي وجداني بالدرجة الأولى وصف نفس قائله وشعوره. حتى إن الشاعر القديم كان إذا عرضَ لبحث موضوعي واقعي كوصف الصيد، الحرب أو كالحكمة والثناء ، لونه بشعوره هو فانقلب الموضوع الواقعي في شعره موضوعا وجدانيا. » (11) إن التشرد والضياع الذي ابتلي به الشنفرى من عشيرته ، وخشونة الحياة وصعوبة العيش وقساوة الطبيعة وتغير طقسها صيفا وشتاء ، كان بحاجة إلى صحبة وحنان يخففان من آلام تلك القسوة البالغة فلم يجد إلا القوس مع سهامها والسيف وفؤاد مشيع ، أنيسا له في حله وترحاله فأثمرت تلك الصحبة روحا عميقة ووجد في ذلك كله شعورا تعويضا للشقاء والحرمان حيث قال :

ثَلَاثَةُ أَصْحَابٍ : فُؤَادٌ مُشَيِّعٌ وَأَبْيَضُ إصْلِيْتُ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

فقد ترك أناسا لا خير فيهم ، ناكرين للمعروف ، ليس في قريهم خير، وعزاؤه في فقد هؤلاء في ثلاثة تغنيه عنهم ؛ وهي قلب قوي شجاع كأنه في ثباته محمي ومنصور ، ثم سيف أبيض صارم مسلول ومهيأ لكل ما يدعى إليه ، وقوس طويلة العنق ، جيدة الصنع لرمي الأهداف عن بعد ، سواء من الأعداء أو الصيد (12) . وتبقى القوس مرة أخرى وفية للشنفرى لا تتخلى عنه فهي كما كانت رفيقته في الكرّ والفرّ لها مهمة تضاهي الأمر الأول حيث يحطمها صاحبها مع نصال السهام التي كان يرمي بها الأعداء فيرمي بها هذه المرة الصقيع ، ويجازف بفقد أهم ما يحتاج إليه ليستدفع به . فكسّر القوس وتحطمتها تحطيم لقلب صاحبها ، ولعل شدة البرد وآلامه لا تقل ألما والشنفرى يودع قوسه كيف لا وهي واحدة من أصحابه الثلاثة ؟

وَلَيْلَةٌ نَحْسٍ يَصْطَلِي الْقَوْسُ رُئُهَا وَأَقْطَعُهُ اللَّاتِي بِهَا يَتَنَبَّلُ

لقد تأمل الشنفرى في الوعول وهي محاطة به تظل ثابتة حين تراه لأنها متعودة عليه، بل وصل من الألفة والميل كأنها تراه واحدا منها فهي تستمتع بوقت الأصيل حول ذكر قوي منيع ، وبوجوده

يتحقق الأمن والطمأنينة له ولإنائه ، وفي هذا البيت والذي قبله يتحدث عن العلاقة التي تربطه بينه وبين الوحوش ، إذ أصبح جزءا من هذه البيئة ، وفردا من وحشها بل صار هو الأخطر من جميع الوحوش ، فهو يقدم لوحة رائعة مدهشة ، وقد وفر لها كل أسباب الكمال ، فهو يحدد الزمان والمكان معا⁽¹³⁾.

تَرْوُدُ الْأَرَاوِي الصُّحْمُ حَوْلِي كَأَنَّهَا عَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْمَلَأُ الْمَذْيَلُ
وَيَرْكُذُنَ بِالْأَصَالِ حَوْلِي كَأَنِّي مِنَ الْعُصْمِ أَذْفَى يَنْتَحِي الْكِخِ أَغْقَلُ

ومما هو ملاحظ أن الموضوع وإن كان واقعيًا ، فالشَّنْفَرَى أضفى عليه لونا شعوريا انقلب لموضوع وجدانيا مرهف حساس .

ت - البساطة :

ما يميز معاني الشعر الجاهلي أنها معان واضحة وبسيطة لا تكلف فيها ولا إغراق في الخيال سواء في تعبير الشاعر عن عواطفه وأحاسيسه ، أو في محاكاته للطبيعة ، ويرد الدكتور شوقي ضيف ذلك إلى أنّ الشاعر لم يكن يفرض إرادته وأحاسيسه بل كان ينقل لوحاته نقلا أمينًا ومحافظًا على صورتها الحقيقية دون تعديل من شأنه أن يمس جواهرها . وبذلك عد شعره وثيقة دقيقة نعرف به حياته وبيئته، برمها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها . فالشعر الجاهلي إذن ، كشف لنا عن عاداتهم ومنطق حياتهم⁽¹⁴⁾ ولعلنا نفسر هذه البساطة أن الشاعر الجاهلي لم يعمد إلى فلسفة المعاني وتعقيدها ، كما عرفناها عند شعراء العصر العباسي وترجع تلك البساطة أيضا إلى أنّ شاعر تلك الحقبة لا يعرف التحذلق أو الرياء أو التملق ويتضح ذلك بجلاء في مدائح زهير بن أبي سلمى ، والشَّنْفَرَى كغيره من شعراء الجاهلية نهل من المورد الذي نهل منه الشعراء أنفسهم ، ولكن كل واحد يختار ما يناسبه حسب موهبته وثقافته ، فلو لاحظنا المواضيع التي تطرق إليها الشعراء في بيئتهم كوصف حيوان مثلا أو منظر طبيعي أو غيره سنجد كل واحد يختلف عن الآخر في طريقة التعبير والمعالجة مع العلم أن الموضوع واحد ، والأسس والعناصر العامة للشعر واحدة...⁽¹⁵⁾ ولناخذ مثلا في الأنفة والعفة عند كل من عنتره والشَّنْفَرَى فعنتره حملة التعفف على الجوع فصر له شما وأنفة يقول⁽¹⁶⁾

وَلَقَدْ أَيْتَ عَلَى الطَّوَى وَأَظْلَهُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

أما الشَّنْفَرى فيفضل أن يستفّ تراب الأرض على أن يمدّ أحد إليه يده بفضل أو لقمة يمن بها عليه وهذا المعنى لا يكاد يخرج عن معنى عنقرة حيث يقول :

أَدِيمُ مِطَالِ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيْتَهُ وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فَأَذْهَلُ
وَأُسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلَا يُرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

ومن مظاهر البساطة أيضا تعبير الشَّنْفَرى عن واقعه المعاش بأساليب وعبارات مفهومة وواضحة وهذه ظاهرة عرف بها الشعراء الصعاليك ولم يكن الشاعر الصعلوك يفرغ نفسه لكي يتأنق في شعره ليأتى به على أحسن حال، بل إن واقع حياته هو الذي لم يسمح له ورغم ذلك ف شعر الشَّنْفَرى نلاحظ فيه التفنن في القول ومثل لهذا بقوله في تعبيره عن يوم شديد الحر كيف يواجه لفح الشَّمس وتحمله والذي لا تطيقه حتى الأفاعي التي خلقت في هذه البيئة وتعودت عليها حيث يقول :

وَيَوْمٍ مِنَ الشَّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ أَفَاعِيهِ فِي رَمْضَائِهِ تَتَمَلَّمُلُ
نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَلَا كُنْ ذُونَهُ وَلَا سِرَّ إِلَّا الْأَتْحَمِيُّ الْمَرْعَبَلُ

والمراد في هذين البيتين أنني في اليوم الذي لا يطاق حرّه أواجه هذا الحرّ ولفح الشَّمس وليس على جسمي إلا برد ممزق لا يحجب عني الشَّمس ، أما وجهي فلست أملك ما يستتره أو يحميه من الحرّ والشَّمس ، فأواجه به هذا الحرّ الذي تتململ منه الأفاعي⁽¹⁷⁾ ، ولندعم قولنا أكثر بما أشار إليه الدكتور يوسف خليف : «... فقد صور الشعراء الصعاليك في فهم البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها : الصحراء القاسية بشعائنها وجبالها وأغوارها ، وصخورها ، ومياهها ، وحرّها وبردها ، ولياليها المظلمة الرهيبة ، وحيوانها الشارد في آفاقها ، ووحشها الرابض في أرجائها ، و حشرات المتوارية في جحورها والسارية فوق رمالها....»⁽¹⁸⁾ ، ومن مظاهر البساطة أيضا الصراحة في التصوير ، ونقل الواقع كما هو كالتعبير عن الجوع والهزال وتشبيه أنفسهم بالحيوانات ، وصراعهم المرير للحصول على ما يسد الرمق فهذا الشَّنْفَرى يجعل من نفسه ذئبا هزيعا ، أضناه

الجوع وهذا الذئب وجد فيه الشنفري أقرب صورة في عدوه وذكائه و مصدر هذا التشابه كان من عالم الحيوان والطبيعة معا :

وَأَعْدُو عَلَى الْقَوْتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَدَا أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفَ أَطْحَلُ⁽¹⁹⁾
غَدَا طَاوِيَا يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِيَا يَخُوثُ بِأَذْنَابِ الشَّعَابِ وَيُغْسِلُ
فَلَمَّا لَوَاهُ الْقَوْتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّهُ دَعَا فَأَجَابَتْهُ نَظَائِرُ نُحْلُ

فالشنفري - كما أشرنا سابقا - يشبه نفسه في سياق حديثه عن الجوع الشديد وقلة الطعام بذئب جائع لا يجد طعاما، والجوع واضح عليه في نحول جسمه وخلوه من اللحم ، يضل ينتقل بحثا عن الطعام ووجه الشبه بينهما هو ندرة الطعام وصعوبة الحصول عليه ، فهذا الذئب أصبح جائعا فخرج مستقبلا الريح باحثا عن فريسة ، وهذه حاله في بحثه عن طعامه متنقلا بين الشعاب والوديان ، إلى أن تعب من البحث ولم يجده في الأماكن التي توقع وجوده فيها ، لم يجد غير الاستغاثة بعشيرته فأجابته ، فإذا حالها جميعا كحالها جائعة وضامرة هزيلة من الجوع المتكرر وشبه دائم .

من خلال هذه الأبيات يرسم الشنفري تركيبة شعرية اتسمت بشيء من البساطة المتناهية منح سطوة اللون وهج الفعل ، وواضح أن اللون لدى الشنفري لا يمثل إحساسا عثيا لتزويق المفردة ، إنما اللون بعينه يدخل في هيكلة وبناء النص ليمنحه صور استعارية ودلالة نفسية واعدة ، لتوضيح الفكرة والمتلقي بطبيعة الحال يتفاعل مع هذه البساطة اللونية لما فيها من دلالات فنية ونفسية ، ولخلق هذا التوازن والتناسب والوحدة والانسجام يرجع إلى الشاعر نفسه في تركيبة هذه الألوان المستمدة من الطبيعة المحيطة به فلفظة أطحل { الذئب } ما هي إلا لون مركب من الأخضر والأبيض ، وأبيض إصليت { السيف } وصفراء عيطل { القوس } ، ونجد السواد يتجلى معناه أيضا في قوله { والليل مقمر ، بمحيار الظلام داهن يتكحل ، والغطش } ، واختلاط اللونين الأبيض والأسود في قوله { وأرقط زهلول } ، واللون الأبيض يظهر معناه في { شيب الوجوه ، مع الصبح ركب } واللون الأسود المائل إلى الصفرة في قوله { الأراوي الصحم } فهذه الألوان ذكرت بعينها ، فالشنفري استعان بهذه الألوان ليعبر عن جوهره الفكري بل إن الألوان

تنطلق من جوانب الشاعر وخبرته وتجربته وتحواله وتكاد تكون هذه الألوان واستعمالها متطابقة لدى شعراء الجاهلية ، و خلاصة هذه الدراسة أن اللون من أهم ما يميز عناصر الصورة عند الشنفرى، حيث لعبت المفردات اللونية البسيطة العديد من الوظائف داخل صوره الشعرية، واستطاعت أن تضيف لها قيمة عالية و مذاقاً خاصاً. ونلخص كل ما قلناه قول الدكتور عمر فروخ : «إنّ الحياة الفطرية والبدويّة والقدم في الزمن عوامل تتضافر على جعل الشخصية الإنسانية ساذجة بسيطة كذلك كانت البيئة الجاهلية ، وكذلك كان أثرها في الشعر الجاهلي». (20)

ث- القول الجامع :

اهتم العلماء والدارسون والنقاد باللامية اهتماما شديدا، والسبب في ذلك يعود إلى ما تميزت به اللامية من غزارة الألفاظ وجودة السبك، والطاقة التصويرية، والقول الجامع ،فالقصيدة الجاهلية تبدأ عادة بمقدمة طليّة تغزلية ثم ينتقل الشاعر بعدها إلى صميم الموضوع . أما الشنفرى مع غيره من الشعراء الصّعاليك لا يلتزمون بهذه السنتة الشعرية بل يبدأ لاميته ببيت يشعر فيه أبناء قبيلته بعزومه على الرحيل قائلا :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيكُم فَأَتِي إِلَى قَوْمِ سِوَاكُم لِأَمِيل

فهذا البيت يحمل في طياته الكثير من الدلائل ، جمع فيه الشنفرى عدة معان لا يفهما إلا اللبيب ، حيث خاطب الشاعر في البداية أبناء قبيلته بلفظة { بني أُمِّي } ونسبهم إلى أمهم في حال أن العرب كانت تعزوا الأبناء إلى آبائهم ولا أمهاتهم ، فالشنفرى بخطابه هذا يخالف الأعراف الاجتماعية حين يتجه بحديثه إلى بني أمه الذين رفضوه ، ولم يعترفوا به . فهو لهذا يرفضهم ويعبر عن التصاقه الدائم بأمه متحديا ومستنكرا عاداتهم وأعرافهم ، ولا يريد منهم الاستعداد لرحيلهم هم ، وإنما يريد استعدادهم لرحيله هو عنهم ، وكأنّه يشير إلى أنهم لا مقام لهم بعد رحيله ، فمن الخير لهم أيضا أن يرحلوا (21) . فتحليلنا لهذا البيت ، وقراءة ما توحى إليه ألفاظه وعباراته ومعانيه ، لعرفنا شيئا وغابت عنا أشياء وأول ما نلاحظه أن بداية القصيدة هي بداية حياة الشنفرى - نفصد بها حريته - بداية لثورته على قومه ، بداية جديدة لحياة الصعلكة التي تعتمد على السلب و النهب، كما نلاحظ أن الشاعر لم يستطع تحمل الذل والإهانة فأخذ يتحين

الفرص للانتقام ممن ظلموه وكانوا سببا في انتقاله من حياة اللين و الاستقرار إلى حياة البؤس والتشرد ، و الشنفرى في هذا البيت يمثل صورة للعربي البدوي الذي علمته بيئته الإباء والعزة ونقاء النفس والقلب ، وأيضا تضمن مطلع الالامية صورة للعلاقات القبلية وما كانت تفرزه من مأس كانت تصيب بعض أفراد القبيلة ، كالخلع والطرود والنبد والتكر للأبوة أو البنوة ، وهضم الحقوق والاستبعاد بغير حق . و يريد الشاعر القول أنه سيبعد نأثيا عن عشيرته ويبحث عن انتماء جديد ، ويتر العلاقة مع ذويه وينسلخ عن نظامهم الاجتماعي ويميل إلى جماعة الصعاليك التي تجمعهم بهم قواسم مشتركة ، أو يميل إلى جماعة الوحوش حيث يرى الشنفرى أنهم أحق وأفضل من البشر ، فالالامية تشعرونا منذ الوهلة الأولى ، أن الشنفرى يمثل حالة اللا انصياع والاستنكاف عن مجارة المشروع الاجتماعي ، والتحول خارج المنظومة الجماعية ، وإذ يرى في الأرض منأى ، فإنه لا يقف من المجتمع موقف اللاقبول فحسب ، بل ينهج نهجا هرويا ينسحب وفقا له إلى الطبيعة خشية الأذى⁽²²⁾. وفي معنى البيت أيضا يبحث الشنفرى عن عالم أمثل وانتهى به الأمر في الأخير اللجوء إلى الطبيعة بوصفها العالم المنشود الذي يضمه ، والشاعر بنزعته الانفصالية يكرس الذات أو الأنا، هذه النزعة نتجت عن إحساس بالضميم والغربة النفسية...⁽²³⁾ كما تضمن خطاب هذا البيت استخفاف الشنفرى لقومه والخط من شأنهم كأسلوب للتعبير عن سخطه واستيائه أمامهم . بعد رحيل الشاعر لن يطيب لقبيلته المقام ولن يشعروا بالسعادة والكرامة ، فقد فقدوا أفضل الرجال :

وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقِلَى مُتَعَزِّلٌ وَفِي الْأَرْضِ مَنَاءٌ لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى

هذا البيت يحمل من الأقوال الجامعة ما عهدناه عند الشنفرى، فهو يخاطب قومه الذين جاهدوه بالعداء ويريد أن يوصل لهم رسالة، وهي أرض الله واسعة، وهو على أهبة الاستعداد لمغادرة القبيلة وليس هناك عامل يثنيه عن الذهاب، فقد أضفى الشاعر على البيت شحنة كبيرة من الشعور بالاعتداد والتعجرف فالشاعر يتحدث وكأنه يهدد أبناء قبيلته أنه لو رحل عنهم لحلت بهم المصائب من جميع النواحي، لعمرك ما بالأرض ضيق، فالإنسان الحر يتمكن من اجتياز التقاليد الظالمة وتخطيها إذا تحلى بالتعقل والطموح ولا يليق بالإنسان الكريم والشجاع أن يرضخ للحياة

الضيقة التي يسودها الذل والهوان مع أنه يستطيع أن يحصل على حياة كريهة أبية بالضرب في نواحي الأرض الواسعة المترامية والتوطين في ناحية تنأى وتبتعد عن أي ظلم وإذلال . ويبدو من البيت أن الشاعر يعرف جيدا أنه في حال عدم احترامه لعادات القبيلة وتقاليدها يُعاقب على ذلك وتظهر في القصيدة شخصية الشاعر الشجاع المفتخر بنفسه وبأعماله ، فليس من المولعين ببهرجة الحياة ، وليس بالجبان ، ولا الأوغاد القليلي الخير أو الجاهلين بمخارم الأرض ومن هنا يصف جلدته على الأسفار واحتماله وعوثة الطريق⁽²⁴⁾ كانت هذه الصفة الغالبة على الشعر الجاهلي عامة وشعر الشنفرى خاصة ، ونؤكد رأينا هذا بقول الدكتور عمر فروخ في حديثه عن الشعر الجاهلي على أنه : شعر وجداني ، من أجل ذلك كان معرضا للآراء المفردة أكثر منه معالجة مستفيضة لشؤون الحياة . ولقد مال العرب عموما والجاهليون خصوصا إلى استجماع القول حتى كان البيت الواحد من الشعر يجمع معاني تامة ، وحتى جعل الأقدمون يفتخرون بذلك⁽²⁵⁾ . ونشير في الأخير أن الشنفرى استطاع أن يجمع في بيت واحد عدة مضامين ومفاهيم نجدها واضحة وكاملة المعالم ، بارزة السمات ، لم يترك الشاعر جانبا إلا وفاه حقه ، سواء في ذلك الجانب النفسي أو الجانب الاجتماعي ، أو ذكر للمكان ، أو وصفا لحاله ، ولم يهمل التفاصيل ، بل يؤكد ويدقق فيها ، ولا يكاد القارئ يمضي في قراءة هذا البيت حتى تفجأه هذه الأقوال الكثيرة التي ينشرها في هذا البيت ، كأنه يستمتع بذكرها ويأنس بقراءتها.. ويدرك المتلقي أن حياة الشنفرى مليئة بالأحداث والتناقضات ، والأحداث الجسم مما أثر على حياته وعلى شعره .

ج- الإطالة والاستطراد :

عرف شعر الصعاليك -ومنهم الشنفرى- بشعر المقطوعات المتناثرة في عدة أغراض وهذا ما يميز شعرهم، عن الشعر الجاهلي من حيث بنية القصيدة وموضوعاتها، وأرجع الدكتور يوسف خليف ذلك إلى طبيعة حياتهم ، تلك الحياة القلقة حياة لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده وإعادة النظر فيه كما يفعل الشعراء القبليون : « وهل نتصور مثلا أن يفرغ الشاعر الصعلوك لفنه كما يفرغ زهير لحولياته ، أو امرؤ القيس في حياته اللاهية الفارغة ، أو النابغة في حياته المستقرة في بلاط المناذرة والغساسنة ؟ ... فحياتهم قصيرة وبأهم دائما على موعد

على الموت ... أظن أن من الطبيعي أن مثل هذه الحياة لا يكاد يفرغ فيها الشاعر لنفسه لا تنتج إلا لونا من الفن السريع الذي يسجل فيه الشاعر ما يضطرب في نفسه في مقطوعات قصيرة موجزة.»⁽²⁶⁾

ولكن قلما نلمس مطولات عند الصعاليك وإن وجدت فهي تعد على رؤوس الأصابع وقد وصلت تسع قصائد كما أشار يوسف خليف ... باستثناء ثائية الشنفرى {34 بيتا} ولامية عمرو ذي الكلب الهذلي {30 بيتا} ، ورائية عروة بن الورد المشهورة، وفائية صخر الغي الهذلي وكل منهما في {27 بيتا}، وقافية تأبط شرا {26 بيتا} ، وبائية الأعلم ، وميمية أبي خراش ، وكلتاها في {24 بيتا} ، ودالية صخر الغي ذات {23 بيتا}، ثم تلك الأبيات المفرقة لتأبط شرا في رثاء الشنفرى بلغت {27 بيتا}⁽²⁷⁾

إلى جانب هذه القصائد نجد اللامية لم يذكرها يوسف خليف على اعتبار أنها منحولة ، ودليله أن ابن دريد نسبها إلى خلف الأحمر ، ورغم هذا الشك الذي يحوم حول اللامية إلا أن الكثير من الدارسين ينسبونها للشنفرى . وقد انفردت اللامية بمزايا ميزتها عن باقي المقطوعات من حيث المعنى والمبنى، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى زاحمت المعلقات وتعتبر من أطول القصائد الجاهلية يقول الدكتور إميل بديع يعقوب : ... فإن أول ما يلفت نظرنا أن هذه اللامية طويلة طولا ليس مألوفاً في شعر الصعاليك ، وسنرى فيما بعد أن شعر الصعاليك كان في مجموعته شعر مقطوعات ، فهذه اللامية تبلغ ثمانية وستين بيتا ، في حين لا تزيد أطول قصيدة في ديوان الصعاليك وهي ثائية الشنفرى المفضلية على خمسة وثلاثين بيتا في بعض المصادر ، أي أنّ هذه اللامية تبلغ ضعف أطول قصيدة في ديوان الصعاليك تقريبا. إلى هذا نلاحظ قلة الاضطراب في رواية ألفاظها، وفي ترتيب أبياتها ، وهي ظاهرة ليست مألوفة في شعر الصعاليك⁽²⁸⁾.

ولا يكاد يختلف الدكتور إميل بديع يعقوب في تناوله لظاهرة الإطالة كما تناولها الدكتور عمر فروخ ، إلا أن إميل يعقوب خص الإطالة على اللامية بينما فروخ نظر إلى المقطعات الجاهلية عامة دون أن يخصها على فئة معينة - نقصد الصعاليك - على أنها مطولات حيث يقول : « وقد أثر عن الجاهلية مقطعات قيل إن أكثرها كان في الأصل قصائد طوالا ثم نسي بعضها. ومع

العلم اليقين أن الشاعر الجاهلي نظم مثل هذه المقطعات ابتداء ، فإن الغالب على طبع الجاهلي أنه كان يميل إلى إطالة القصائد»⁽²⁹⁾

أما الاستطراد فيُعرف على أنه خروج المتكلم من الكلام الذي هو مسترسل فيه إلى غيره - باستدعاء مناسبة - ثم يرجع إلى ما كان فيه ، وهو قريب من الاعتراض ، غير أن الاعتراض منه ما يقبح ويحسن بخلاف الاستطراد فإنه حسن كله . وإلى هذا يشير الدكتور عمر فروخ بقوله : « وكان يحمّد في الشاعر الجاهلي أن يكون طويلاً النفس أي يطيل القصائد . وقد يخرج الشاعر أحياناً عن الموضوع الأساسي إلى موضوعات تتعلق به من قرب أو من بعد ، وهذا يسمى الاستطراد . »⁽³⁰⁾ من أمثلة الاستطراد في شعر الشنفرى قوله:

وَإِنْ مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةً عَنْ تَفَضُّلٍ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَفَضِّلُ

وأول مظهر يتجلى لنا في هذين البيتين التزامه بالمذهبية الصعلوكية وعدم تهافته على الزاد بشراهة الآخرين عندما يمدُّ للأكلين بل إنه يأكل باحتشام وبأدب جم ، ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلى الافتخار بمنشئه على الأدب والحشمة في الحياة ويصف الجانب العملي من أخلاقه أثناء تناول الطعام وزهده فيه ورغبته عنه، فهو ذو نفس رفيعة أنية وقدر شامخ لا يطأه أحد، وهو لا يستعجل أثناء تناول الطعام⁽³¹⁾.

فالشنفرى في البداية كأنه يشير إلى هجاء كل من يتحلى بسلوك الجشع والطمع والاستعجال في تناول اللقمات أو في ازدياء الطعام ، وعادة مثل هذه الأخلاق تسقط من مروءة الرجل ويذهب حيأؤه لينتقل إلى الفخر بنفسه، فهو من الرجال الأحرار ذوي النفوس الأبية. لينتقل بعدها إلى إعطاء صورة حية لحياته في الصحراء وفي نظرتة للناس وعدم اكتراثه بالمشقات، بل هذه المعينات هي التي صنعت منه رجلاً شهماً وشخصية لا تهتز :

أَدِيمُ مَطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيَّتَهُ وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فَأَذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلًا يَرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ
وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الدَّمِّ لَمْ يُلَفْ مَشْرَبٌ يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَا كَلُّ

وَلَكِنَّ نَفْسًا مَّرَّةً لَا تُقِيمُ بِي عَلَى الدَّامِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ
وَأَطْوِي عَلَى الْحَمَصِ الْحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ خُيُوطُهُ مَارِيَّ تَغَارُ وَتُقْتَلُ

فالشَّنْفَرى في هذه الأبيات تمثل خالص الوصف وعظيم الثبات ، وصبره على الجوع ، فهو لا يلقي بالا للساعات الجوع، حتى إنه لينسى أنه جائع ، ويتناول التراب سفا من أن يتناول الطعام الشهي من المتصدقين ، وتكاد تكون هذه صفة بعض الصعاليك رغم تناقضاتهم العديدة كانوا يتمتعون بقدر عظيم من الاحتشام والأدب، لينتقل - مستطراداً - من وصف حاله إلى الفخر بنفسه الكريمة الحرة الأبية مترفعة عن ذلك الضيم، ليعود مرة أخرى إلى وصف أمعائه المطوية كالخيوط بسبب الجوع الذي كان يتعرض له أحيانا كثيرة (32) .

ح - الخيال :

لقد تطرق الشَّنْفَرى إلى عرض صورة حياة حياته وصعلكته وبيئته من خلال لاميته ، التي تعددت موضوعاتها مما جعلها تكون بحق سجلا للحياة في أدق جزئياتها وتفصيلاتها، وبذلك فقد تتبع النقاد و الدارسون حياة الشَّنْفَرى خاصة والصعاليك عامة يومياته وأشائه وترصدوها لحظة بلحظة، ويعد الخيال في شعر الشَّنْفَرى جانبا مهما في بناء لاميته ومن الملاحظ أنّ المتأمل في اللامية يرى أنّ الشَّنْفَرى ليس منفصلا تماما عن بيئته ، بل بالعكس فهو لصيق بها أشدّ الالتصاق مهما يكن تفرد الشاعر في إبداعه، فإنه لا يمكن إلا أن يكون ابن زمانه وبيئته، يغترف منها أفكاره و معانيه، وينحت لغته ويتصيد صوره، فهو لا يستطيع أن يتخلص من مخزونه المعنوي الذي هو في النهاية حصيلة تجاربه في الحياة، فالذي " يحدث أن الشاعر يستثير هذه المادة في الهيئة التي يختارها، وتعبّر عن نفسيته من خلال استدعائها من مخزون ذاكرته بحيث تشكل هذه في النهاية معادلا مساوقا لتجربته الشعرية (33) .

وَلَيْلَةٍ نَحْسٍ يَصْطَلِي الْقَوْسَ رُثْهَا وَأَقْطَعُهُ اللَّاتِي بِهَا يَتَنَبَّلُ
دَعَسْتُ عَلَى غَطَشٍ وَبَعْشٍ وَصُحْبَتِي سَعَارٌ وَارْزِيزُ وَوَجَرٌ وَأَفْكَلُ
فَأَيَّمْتُ نِسْوَانًا وَأَيَّمْتُ إِلَدَةً وَعُدْتُ كَمَا أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلِيلُ

فقد استطاع الشنفرى في هذه الأبيات أن يصور كيف عانى الأمرين من شدة البرد والجوع ورغم ذلك صبر وتحمل مالا يطاق فكل من الجوع والبرد أحدث عنده ردة عنيفة من اللوعة والأسى والحسرة والمرارة ولكنه التحف ثوب الجلد والصبر الذي لا حدود له ، ثم يعطف على ذكر أمر آخر وهو قتله لكثير من الناس ، وترك النساء أيامى والأولاد يتامى ، ثم عاد إلى نقطة البدء في مسيره الأول⁽³⁴⁾.

وإذا أمعنا النظر في هذه الصورة الخيالية نجدها كاملة واضحة المعالم بارزة السمات ، فهي تمثل فترة من حياة قائلها ، وهي الفترة التي تلت ثورته على قومه الذين تربى بينهم ثم رحل عنهم كما أعلن ذلك في مطلع لاميته، والتجأ إلى الصحراء ليبدأ مرحلة جديدة من حياته هي ما يعرف بالصلعة ولم يترك الشاعر جانبا من الخيال إلا ملاءه ووفاه حقه سواء في ذلك الجانب الحركي، أو الجانب النفسي أو ذكر للزمان والمكان ، فالجانب الحركي ونحن نتخيل الشنفرى يرتعد من البرد ، وتصطك أسنانه ، وينفخ بفيه مرتين ، مرة في يديه لتسخن حتى يستطيع كسر النبال والقوس ، ومرة ينفخ لتشتعل النار ، أما الجانب النفسي فيتمثل في مجازفة الشنفرى لقوسه وتأله بفقد أهم ما يحتاج إليه ليستدفى به ، والخوف الذي لازمه في ليلة شديدة الظلمة ، والجوع الذي هدد جسمه ، والأثواب البالية التي لا تقيه القفر، كل هذه الأشياء أثرت سلبا على الشنفرى وكانت أشد إيلا ما ووقعا على نفسيته أما ذكر الزمان والمكان فهو ليل وصفه بالبحس والأغطش ، وفلاة مخيفة ، فالشنفرى لم يهمل التفاصيل و أعطى لكل جانب حقه بل الذي زاد الأبيات جمالا وإحكاما هي الصور الخيالية حيث كان لها دورا لا يبارى في التلذذ بذوق اللامية ، ذلك أن الخيال يفتح الآفاق أمام النفس البشرية، فلا نشعر بالملل تجاهها ولا بالضيق. و صدق من قال : الدنيا دون خيال تكون شديدة الضيق، فيجيء الخيال ليوسّعها وينطلق بالإنسان إلى عوالم أرحب وأكثر انفتاحا ؛ حيث يتعامل مع أشياء أكثر مواتا وطواعية، وفوق ذلك فالخيال هو وسيلة توليد الصور في هيئة جديدة طريفة وهو أيضا وسيلة للجمع بين الصور المتباعدة أو حتى المتعارضة والمتضادة ، من أجل التأثير في المتلقين وإلى هذا عبر الأستاذ محمد الخضر حسين التونسي بقوله

: « فالتخيل فائدة عامة لا نتخلى عنه وهي تحريك نفس السامع لتلقي المعنى بارتياح له وإقبال عليه ولو كان من قبيل الحديث المألوف أو المعلوم بالبداهة »⁽³⁵⁾.

واستخدام الخيال يرتبط بقدرة الشاعر على تكوين صور ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد الاستعارة الآلية لمدرجات حسية ترتبط بزمان ومكان بعينه ، بل تمتد إلى ما هو أبعد من ذلك ؛ فتعيد تشكيلة المدركات، وتجمع بين المتناقضات وتخلق الانسجام والوحدة⁽³⁶⁾ . لقد استعمل الشنفرى في لاميته جميع ألوان البيان وأتى استعماله لها طبيعيا لا تكلف فيه سواء كان تشبيها أو استعارة أو كناية - كما مر بنا سابقا - وكان همه الأول والأخير أن ينقل ما يعمل بنفسه وخاطره نقلا دقيقا إلى غيره ليتأكد أن هذا الأخير أصبح على دراية بتجاربه، ولا ننسى البيئة الصحراوية الواسعة التي لعبت دورا أساسيا في خلق خيال واسع استمد منه الشنفرى أفكاره وتعبيره ، ونعزز قولنا بقول الدكتور عمر فروخ حيث يقول : « وإذا كان اتساع أفق الصحراء قد أدى إلى اتساع خيال الشاعر الجاهلي ، فإن هذا الشاعر الجاهلي كان فطريا بسيطا كبيئته. ولا ريب أن الخيال في الجاهلية كان لا يزال يعتمد على التشابه والاستعارات أكثر من اعتماده على انتزاع الصور من الطبيعة »⁽³⁷⁾. فالطبيعة إذا ؛ هي ذلك الكتاب المفتوح، الذي لا يفتأ الإنسان يرجع البصر فيه ويعمل الفكر فيه ما تعاقب الليل والنهار، وإلى أن ينقضي العمر، يظل الإنسان يتأمل صور ذلك الكتاب الجميل في مدرسة الطبيعة الكبيرة بأرضها وسماؤها وجمادها، وحيوانها، وجبالها وأنهارها، وليلها ونهارها. فالصور التشبيهية عند الشنفرى تعطى جمالا وبلاغة ، لأن فيها طلب لإعمال الذهن وتوظيف الخيال لتحديد الصفة المشتركة بين الطرفين وتطرق إلى ذكر بعض التشبيه يقول الشنفرى في البيت { 44 من لاميته } :

وَأَعْدِلْ مَنْحَوْضًا كَأَنَّ فُصُوصَهُ كَعَابَ دَحَاهَا لَاعِبٌ فَهِيَ مُثُلٌ⁽³⁸⁾

يصور الشنفرى ذراعه التي يتوسدها ، لكن هذه الذراع ليست ككل الأذرع ، فهي خالية من اللحم ، نحيلة لا تبدو فيها إلا المفاصل صلبة جافة كأثما كعوب من حديد، وهذا ينعكس على

جسمه من حيث النحول وخلوه من اللحم، فهذا البيت وصف لحاله في النوم ، فهو يفترش الأرض بجسم ليس فيه إلا عظام وفقار⁽³⁹⁾ .

فشبهها بلعبة يلعب بها فهي منتصبه والغرض من هذا التشبيه بيان صفة الضعف والضمور . والإنسان مضطر إلى الخيال بطبعه، محتاج إليه بغريزته؛ لأن منه غذاء روحه وقلبه ولسانه وعقله. وأن اضطرابه إليه جعله في نظره الأول حقيقة لا خيالا، وما أصبح يعرف الخيال من الحقيقة إلا بعد أن تطورت نظرتة إلى هذه الحياة وأصبح يعرف أنّ الليل والنهار والعواصف والبحار ليست أرواحاً ولا آلهة، وإنما هي مظاهر لهذا النظام الإلهي العتيد الذي يسخر كل شيء⁴⁰ .

خلاصة لما ذكرنا نصل إلى أن الخيال من العناصر الأساسية في صناعة الصورة الفنية الذي يتفاضل به الشعراء في مجال الإبداع ، فعلى الخيال تقوم وظيفة خلق الصور ، وإبراز الجمال في استعمال الاستعارة والتشبيه... وعلى هذا فإن الخيال جوهر الأدب كما قال عبد القاهر الجرجاني.

5- الهوامش

- (1) ديوان الشنفرى، جمعه وحققه إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط2، 1996، ص 12 .
- (2) عبد الحليم حفني، شرح ودراسة لامية العرب ، مكتبة الآداب، 42 الأوبرا-القاهرة، ط3 2008 ، ص 49 .
- (3) سعد إسماعيل شلبي ، الأصول الفنية للشعر الجاهلي ، دار غريب للطباعة ، ط 2 ، 1972 ، ص 317 .
- (4) كوثر أرشد و عبد الله محمد بلال، منهج الشنفرى في لامية العرب دراسة تحليلية، الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد، ص5.
- (5) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، ط 4 ، 1981 ، ص 76 - 77 .
- (6) ينظر، أحمد محمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار القلم ، بيروت - لبنان ، ط 5 ، 1972 ، ص 302

- (7) نوري حمودي القيسي ، الأدب والالتزام ، دار الحرية للطباعة ، بغداد - العراق ، دط ، 1979 ، ص 51 .
- (8) سعد إسماعيل شليبي ، الأصول الفنية للشعر الجاهلي ، ص 48 .
- (9) غازي طليمات و عرفان الأشقر ، الأدب الجاهلي ، دار الإرشاد ، حمص - سوريا ، ط 1 ، 1992 ، ص 233 .
- (10) يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة - مصر ، ط 3 ، 1966 ، ص 286 .
- (11) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، 1981 ، ص 77 .
- (12) عبد الحليم حفني ، شرح ودراسة لامية الشنفرى ، ص 11
- (13) المرجع نفسه ، ص 33 .
- (14) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة - مصر ، ط 11 ، ج 1 ص 219
- (15) هاشم صالح مناع ، روائع من الأدب العربي ، دار الهلال والوسام ، بيروت - لبنان ، ط 2 ، 1991 ، ص 21 .
- (16) غازي طليمات و عرفان الأشقر ، الأدب الجاهلي ، ص 410 .
- (17) عبد الحليم حفني ، شرح ودراسة لامية العرب للشنفرى ، ص 31 .
- (18) يوسف خليف ، الشعراء صعاليك في العصر الجاهلي ، ص 282 .
- (19) لأزل : صفة للذئب القليل اللحم في فخذيته وعجزه - الأطحل : هو الذي لونه بين الغيرة والبياض
- (20) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، 1981 ، ص 77 .
- (21) عبد الحليم حفني ، شرح ودراسة لامية العرب للشنفرى ، ص 08 .
- (22) يوسف اليوسف ، مقالات في الشعر الجاهلي ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ط 1 ، دمشق - 1975 ، ص 21 .
- (23) حرشايي جمال ، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك (الشنفرى أنموذجا) ، ص 111 ، بتصرف .
- (24) علي يحيى محمد السرحلي ، منهج العكبري في كتابه إعراب لامية الشنفرى ، رسالة لنيل الماجستير ، المملكة العربية السعودية ، ص 15 .

- (25) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، 1981 ، ص، 78 .
- (26) يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص 262 ، بتصرف .
- (27) المرجع نفسه ، ص 259 ، بتصرف .
- (28) إميل بديع يعقوب ، ديوان الشنفرى ، ص 16 .
- (29) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، 1981 ، ص، 78 .
- (30) المرجع نفسه ، ص 78 .
- (31) محمود حسن أبو ناجي، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي ، صدر عن وزارة الثقافة، الجزائر، ط2، 2007، ص99-100.
- (32) محمود حسن أبو ناجي، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي ، ص 125 .
- (33) كبلوتي قندوز، 2014، أصول الصورة الشعرية في الشعر الجاهلي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، غرداية - الجزائر، العدد 2 ص 5 .
- (34) محمود حسن أبو ناجي ، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي ، ص 131.
- (35) محمد الخضر حسين التونسي، الخيال في الشعر العربي، المطبعة الرحمانية ، دمشق - سوريا ، 1922 ، ص 69 .
- (36) حرشاوي جمال ، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك (الشنفرى أمودجا) ، ص 202 ، بتصرف .
- (37) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، 1981 ، ص، 78 .
- (38) أعدل = أتوسد - المنحوض = الذي ذهب لحمه ، فصوصه = مفصل عظامه ، الكعب = الأنوبين من القصب
- (39) عبد الحليم حفي ، شرح ودراسة لامية العرب للشنفرى ، ص 24 .
- (40) أبو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب، رقم إيداع 8994 / 2013 ، القاهرة - مصر ، ص 15 .